جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت - كلية الآداب
قسم اللغة العربية
الدراسات العليا / ماجستير (ادب)

عنوان المحاضرة:

الوقفةُ الطَّلَلِيَّةُ

إعداد ا. د : نبراس خماس محمد

١٤٤٧هـ

٢٠٢٦ م

((الحبُّ عاطفةٌ كبيرةٌ من عواطف النفس الإنسانيَّة بل لعلَّه أقوى العواطفِ إطلاقاً . وقد شعرَ بها الناس في قديم الأزمان شعوراً قويّاً . ويستغرقُ الحبُّ من فنون الأدب العالميِّ قديمه وحديثه . شيءً كثيراً ويشغَلُ فيهِ حيِّزاً كَبيراً)) (١)

ونرى أن أدبنا العربيِّ وخصوصاً القديمَ منه قد فاضَ بقضايا العاطفة والحنين حتى خلَّف لنا نتاجاً جميلاً . والشاعر الجاهلي مع أنَّه قد عاش في بيئةٍ قاسيةٍ وظروفٍ يسودها النزاع والتناحر . لكنَّه كانَ مرهف الإحساسِ رقيق الطِباعِ في مجال العاطفة . وهذه العاطفةُ الجيَّاشة هيَ التي أنتجت لنا ما يسمى (بظاهرة الوقوف على الأطلال)

ماهيَ الأطلال : ((هي البقايا التي تظهرُ شاخصةً ماثلةً فوقَ الأرضِ كالأوتادِ والأثافي وبقايا الخيام . واحدها طللٌ وهو ما شَخَص برزَ من فوق الأرض من آثار الديار .

أما الرسوم : فهي البقايا التي تكونُ على الأرضِ وتظهر لاصقةً بها كبقايا الرماد والدِمَنِ وما تناثَرَ من الفُرُشِ وواحدها رسمٌ وهو ما لَصُقَ بالأرضِ من آثار

الديار)) (٢)

والوقفة الطللية : هيَ ظاهرةٌ أدبيَّة ظهرت في العصر الجاهلي التجأ إليها الشاعرُ ليعبِّرَ عب شعوره بالأسى لفقد محبوبته فيقف على بقايا ديار أهلها فيحاكيها ويبثُّ لها لواعجَ قلبه .

---

١ _ شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث ، عزة حسن ، دمشق ، مطبعة الشرقي ، ١٩٦٨م ، ص ٥

٢ _ المصدر نفسه ، ص ٢٥

((ويعدُّ الطللُ من أهم الموضوعات التي ترددت في القصيدة الجاهلية لعلاقته الوثيقةِ بإنسانيَّة الشاعر الجاهلي وميوله وعواطفه بماضيهِ وحاضره)) (١)

و إنَّ وقوف الشاعر على تلك البقايا البالية والرسوم المتهالكة الدارسة من آثار الديار الخالية ليست مجرَّد وقفةٍ عابرة أو كلماتٍ يسطرها الشاعر في قصيدته . بل هيَ نتاجُ تجربةٍ عاشها الشاعر ومرَّ بها . سواءً كانت لحبيبةٍ غادرت هذه الدار أو لتذَكُّرِ مراتعِ الصِبى وأيام الشباب في تلك الدار .

وكلُّ بيتٍ من أبيات الشعر في هذا المجال يحملُ دلالةً مختلفة ونظرةً عميقةً تجسدُ تجربةِ قائلهِ ومعاناتهِ مع تلكمُ الأطلال .

فمن الشعراء من وقف على بقايا ديار محبوبته التي لم يمضِ زمنٌ طويلٌ على رحيلها . كما قال امرؤ القيس ((٢))

قِفا نَبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللوى بين الدَخولِ فَحوملِ

فَتوضحَ فالمِقراةِ لم يعفُ رسمها لِما نسجتها من جنوبٍ وشمألِ

فالشاعر هنا وقف واستوقفَ وبكى واستبكى على آثار منزل حبيبته الذي لم تختفي معالم رسوم دارها بعد وهذا يدلُّ على أنَّ العهدَ بها قريبٌ لأنَّ بقايا دارها لم تؤثِّر فيها رياح الجنوب ورياح الشمال .

((ويرى ابنُ رشيقٍ القيروانيَّ أنَّهذ أفضلُ ابتداءٍ صنعهُ شاعرٌ لأنَّه وقف واستوقف و بكى واستبكى وذكر الحبيبَ والمنزلَ في بيتٍ واحد .)) ((٣))

---

١ _ الطبيعة في الشعر الجاهلي ، نوري حمودي القيسي ، بغداد عالم الكتب ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ م ، ص ٢٥٧

٢ _ ديوان امرئ القيس ، تحقيق عبدالرحمن المصطاوي ، بيروت ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٤ م ، ص ٢١ _ ٢٢

٣_ ينظر : العمدة في صناعة الشعر ، ابن رشيق القيرواني ، ج ١ ،تحقيق : مفيد قميحة ، بيروت ،دار الكتب ،١٩٨٣م ،ص ٢٠٠

بينما نرى امرأ القيس في قصيدة أخرى يصفُ بقايا ديار حبيبته على أنها باليةٌ قد أكل الدهرُ عليها وشرب ومرَّت عليها عصورٌ طويلة . فيقول .((١))

ألا عِم صباحاً أيهَ الطلل البالي   وهل يَعِمَن من كانَ بِالعُصُرِ الخالي

وهذا يدلُّ على تقادم عهده بأهل تلك الدار .

ولعلَّ زهيرَ ابنَ أبي سُلمى أحسنُ من صوَّر تقادم عهد الشاعر ببقايا ديار أهله فقد وقفَ عليها بعد عشرينَ سنةً حتى لم يكد يعرفا ويميِّزها من غيرها إلا بعدَ مشقَّةٍ وعناءٍ . فيقول ((٢))

وَقَفتُ بها من بعدِ عشرينَ حِجَّةً   فَلَأياً عرفتُ الدار بعدَ تَوهمِ

ثمَّ يصفُ بقايا الدار من أحجار القِدرِ التي اسودَّت من النار والحوضِ الذي يكون حولَ الخباءِ فيقول .

أثافيَّ سُفعاً في مُعَرَّسِ مِرجَلٍ   و نؤياً كجذمِ الحوضِ لم يتثلَّمِ

ثمَّ يُصوِّرُ الطللَ وكأنَّهُ لا يزالُ مأهولاً لم يغادرهُ أهله بعد . وهذا كلهُ في مخيِّلة الشاعر . فيقول .

فلما عرفت الدار قلتُ لربعها   ألا انعم صباحاً أيهَ الربعُ واسلمِ

وربما كانَ الطللُ رمزاً للمرأة أو المحبوبة فنرى بعض الشعراء يذكر اسمَ حبيبته عند الوقوف على آثار ديارها فيصف الطلل . والمراد من ذلك الوصف هو ذكر المحبوبةِ لا الطللُ بعينهِ

---

١ ــ ديوان امرئ القيس ، تحقيق : عبدالرحمن المصطاوي ، ص ١٣٥

٢- ديوان زهير بن أبي سلمى ، تحقيق : علي حسن فاعور ، بيروت ، دار الكتب ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٨ م ، ص ١٠٣

كما قال طَرَفةُ بن العبد . ((١))

لخولةَ أطلالٌ ببرقةِ ثهمدِ تلوحُ كباقي الوشمِ في ظاهرِ اليدِ

وكقول النابغةِ الذبياني . ((٢))

يا دارَ ميَّةَ بالعلياءِ فالسنَدِ أقوت وطالَ عليها سالفُ الأبدِ

و صوَّر بعض الشعراء معاناتهم مع تلكَ الأطلال حين يناديها فلا تجيبه فيجعلها كشخصٍ أصمَّ لا يسمع الكلامَ ولا يفقهُ الإجابةَ . كما قالَ عنترةُ بن شداد ((٣))

أعياكَ رسم الدارِ لم يتكلَّمِ حتى تكلَّمَ كالأصمِّ الأعجمِ

وكقول النابغة الذبياني ((٤))

وَقفتُ فيها أصيلاً كي أسائلها عيَّت جواباً وما بالربعِ من أحدِ

وفي هذا البت دلالةٌ زمنية لأنَّ الشاعر قد اختارَ وقتَ الأصيل وهو وقت غروب الشمس وفي هذ الوقتِ تتراكم الأحزان ويتهيجُ الشوقُ و تُستَرجعُ الذكريات فوقف في هذا الوقت على الأطلال ليسألها عمن كان يسكنها لكنه لم يجد جواباً.

و حاول النقاد القدامى تفسير هذه الظاهرة وقد ذهبَ ابن قتيبةَ الدينَوَريُ المتوفى سنةَ ٢٧٦ هجرية إلى أنَّ هذه الظاهرةَ تمَثّل جزءاً أساسيَّاً من القصيدة العربية ترتبطُ بأسبابٍ نفسيَّةٍ حددها في قولهِ

---

١ – ديوان طرفة بن العبد ، تحقيق : محمد مهدي ناصر الدين ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٢ م ، ص ١٩

٢ – ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق : محمد الطاهر ابن عاشور ، تونس ، الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٦ م ، ص ٧٦

٣ – ديوان عنترة بن شداد ، تحقيق : حمدو طماس ، بيروت ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٤ م ، ص ١٢

٤ - ديوان النابغة الذبياني ، مصدر سابق ، ص ٧٦

((سَمِعتُ أنَّ بعضَ أهل الأدبِ يَذكُرُ أنَّ مُقَصِّدَ القَصيدِ إنما ابتدأ فيهِ بذكر الديارِ والدِمَنِ والآثار فبكى وشكى وخاطبَ الربعَ واستوقفَ الرفيقَ . ليجعلَ ذلكَ سبباً لذكرِ أهلها الظاعنين عنها . إذ كانت نازلةُ العُمُدِ في الحلولِ والظعنِ على خلافِ ما عليهِ زلزلةُ المُددِ لانتقالهم من ماءٍ إلى ماءٍ وانتجاعهمُ الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث . ثمَّ وَصلَ ذلكَ بالنسيبِ . فشكى شِدَّةَ الوجدِ وألم الفِراقِ والشوقَ ليميلَ نحوه القلبُ ويستدعي صفاء الأسماع إليهِ لأنَّ التشبيبَ قريبٌ من النفوس لما جعلَ الله في تركيبِ العبادِ من محبَّةِ الغزلِ فلا يكادُ أحدٌ يخلو من أن يكونَ متعلِّقاً منهُ بسببٍ . ثمَّ شكى النَصَبَ والسَهَرَ وسُرى الليلِ والهجير)) ((١))

فدوافع المقدمة الطللية كما يقول "ابن قتيبة" هي ذكر الحبيبةِ بالدرجةِ الأساس ثمَّ نزعةُ الحزنِ و الفِراقِ والبكاءِ على الأطلالِ لكي يُحزِنَ السامعَ ثمَّ يخلصُ إلى الغزلِ ليتمكَّنَ من نفسِ السامعِ فيستهوي سَمعهُ وفؤاده .

أما ابُن رشيقٍ القيروانيُ المتوفى سنةَ ٤٦٣ هجرية فعللَ ظاهرة الوقوف على الأطلال تعليلاً يرتبطُ بينها وبين طبيعة الحياة الجاهليَّة فقال ((كانوا قَديماً أصحابَ خِيامٍ يتنقَّلونَ من موضعٍ لآخر فلذلكَ أولُ ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار)) ((٢))

كذلك حاول بعض النقاد المحدثين تفسير ظاهرة الوقوف على الأطلال فعللوا في ذلكَ تعليلاتٍ مختلفة

((ففريقٌ يتخذ آراء القدماء ونظرتهم منطلقاً لرأيه وإذا كان له من فضلٍ فحسن العرضِ وجمال الصياغةِ وإلقاء مسحةٍ تشف عن الرأي القديم الذي أفاد منه)) ((٣))

---

١ _ الشعر والشعراء ، ابن قتيبة الدينوري ، ج ١ ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٢ ، ص ٧٥ _ ٧٦

٢ - العمدة في صناعة الشعر ، ابن رشيق القيرواني ، ج ١ ، تحقيق : مفيد قميحة ، بيروت ، دار الكتب ، ١٩٨٣ ، ص ٢٢٦ .

٣- الاصول الفنية للشعر الجاهلي، سعد اسماعيل شلبي، القاهرة، دار غريب الطبعة الثانية،١٩٧٧م، ص ١٣٤

فمن الذين يدورون في فلك القديم "الدكتور محمد الكفراوي" حين قال ((يظهر أن الشعر العربي كما يُفهمُ من اشتقاقهِ بدأ أول الأمرِ في صورة نجوى بين المرء ونفسهِ يترجم بها عن مشاعرهِ ويتغنى فيها بآمالهِ وآلامه وعواطفه ونزعاته كلما طال عليه الليل وامتدَّ به الطريق فيحيل تلك المشاعر والعواطفَ ألحاناً عذبةً وأغاريد شجية وأيُّ شيءٍ أحب إلى نفسهِ وألصقُ بفؤادهِ من حبيبتهِ يسترجعُ ذكرياتهِ معها حلوها ومرَّها فإن حال الزمانُ بينهما فارتحلت عن ديارها على عادةِ البدوِ لم يجد سوى الرَّبع الخالي يروي أرضهُ بدموعهِ حيناً ويسألهُ عن الحبيبةِ الراحلةِ أحياناً ويلتمسُ في جوانبهِ مواطئ أقدامها ومضجَعَ جنبها فإذا أعياه التماسها هناك التمسَ صورتها في وجهِ القمرِ ويسمعُ حديثها في هديلِ الحمائمِ وتَنَفَّسَ أنفاسها عندَ الأصائلِ والسحر .. ومن يدري لعلَ الشاعر العربيَّ لم يعن يبكي حبيبتهُ أو يرثي لعشِّها المهجور فقط بل كانَ يبكي من حيث لا يشعر ذلك الحظ التَعسَ الذي منى بهِ هو وأمثالهُ من البدوِ حين فَرضت عليهم ضرورة الحياة أن يظلوا متنقلين على رقعة الصحراء كأنهم قِطَعُ الشطرنجِ تاركين في كلِّ مكانٍ فلذةً من أكبادهم وقِطعةً من تاريخهم فهم دائماً غرباء وهم دائماً على سفر في اجتماعٍ وافتراق . ووصلٌ وهجرانٌ مختارينَ حيناً ومُكرهينَ أحياناً)) (١)

و كان للمستشرق الألماني "فالتر براونة رأي مهم في تفسير هذه الظاهرة

فيقول ((إنَّ قِطَع النسيب التي تطالعنا في صدور القائد الجاهلية ليست وَسيلةً إلى غايةٍ أبعدَ منها وإنما هي غايةٌ في نفسها . وأما ما يقوله ابن قتيبة من وصلٍ بالنسيب وشكوى شدة الوجد وألم الفراق فتفسيره غريبٌ بعيدٌ عن الاحتمال لسببٍ بسيط وهو أنَّ الشاعر عضوٌ في المجتمع البدوي مشتركٌ في حياةِ عربِ الجزيرةِ وبيئتهم ومن المفهوم أن كل ما يسوقهُ في وصف الناقةِ والصحراء . ومن فخرٍ بالقبيلةِ وهجاءٍ للعدو جديرٌ بجذب انتباهِ مجتمعه فما الذي يُلزمهُ بطلب الإصغاء وما الذي يُوجبُ

---

١ – الشعر العربي بين الجمود والتطور، محمد عبد العزيز الكفراوي، بيروت ،دار القلم، الطبعة الثانية، د .ت ، ص ٣٤

عليه الأبيات الغريبة ؟ ألزمُ عليهِ أن يُميلَ أهلهُ بمقدمةٍ لوصفهِ .مع أنه متأكدٌ أن وصف البداوةِ يعجب أصحاب الحي .

فابن قتيبة يعيشُ في مجتمعٍ متحضرٍ بعيدٍ عن البداوةِ غايةَ البعد

. ويخلص من ذلك إلى ردِّ رأي ابن قتيبة فيقول..

إن النسيبَ إن تعددت أنواعه واختلفت مظاهره الشكليَّة وصورهُ الخارجية يخضعُ جميعهُ لفكرةٍ واحدةٍ ويندرجُ تحتَ غرضٍ واحد هو "اختبار القضاءِ والفناء والتناهي" فإنَّ الإنسان في كلِّ زمانٍ ومكانٍ يسأل عن وجودهِ ومصيرهِ ونهايتهِ بصفةٍ خاصَّة كانَ هذا السؤال يؤلم الشاعر الجاهلي ويضايقه فطالما ردد عبارات "عفت الديار ،درست الدمن ، محيت الرسوم" والحياة تفنى تحت جبر القضاء . والموت قريبٌ تحت صروف الدهر العاتي .

إن وجود الإنسان تخيِّم عليه تجربة التناهي فهل ستكون حياته مثل الديار تطفح بالحركةِ والحياةِ يوم أن يكونَ أهلها في ربوعها . ثم تتحولُ إلى قفارٍ موحشةٍ يخيِّم عليها السكون والموت وتتبدلُ من أهلها وحوشاً ؟ لقد ملأ التفكير في لوجود والمصير على الشاعر الجاهلي حياته غير أنه لم يكن تعبيراً صادراً عن التشاؤم وإنما كان حافزاً إلى الإقبالِ على الحياة واستئناف الرحلة بروحٍ وثَّابةٍ إذ كانَ يتمُّ نسيبهُ بكلمتين .. دع هذا .. إنَّ العزم على الحياة والعملَ ليس ممكناً إذا أدرك الإنسانُ أن وجودَهُ محدودٌ متناهٍ)) ((١))

---

١ – الاصول الفنية في الشعر الجاهلي ، ص ١٣٧ - ١٣٨